ذلك تتركه لفطنة القارىء وحكمته . ومتى تذكر أن الدولة التي قوضت دولة الرومان و بسطت سلطتها من الهند إلى الاطلنطيك انما قامت عن قبائل متوغلة في الخشونة والهمجية، أقوى سلاحها الاتحاد والحمية ، يعلم اننا لم نفرض المستحيل ، وان الدهر أبو الغرائب الامضاء

(ن . الفويكي)

﴿ جواب المنار ﴾

قول الكاتب الفاضل إن رد هجمات الشمال عن الجنوب ودفع غارات الافرنج عن أمم الاسلام غير ممكن إذا دام الحال على هذا المنوال — قول صحيح لا ريب فيه . وقوله يمكن « إذا صاح صوت من غربي أفريقية الخ أو اذا لفحت ريح من المشرق الخ » محل نظر وبحث إذ يتبادر ان مراده بالصوت الصائح ، والريح اللافح، قيام المسلمين بثورة عامة تبتدئ من الغرب فيليها الشرق ، أو تهب من الشرق فيتزعزع لها الغرب ، وتنهض الامة نهضة واحدة للتنكيل بالدخلاء الذين عدوا على البلاد مغتاثين فاستبدوا بالسلطة واستأثروا بالرياسة . وهذا مراد لا ينال وغاية لا تدرك ، فالمسلمون لا تجمعهم لغة ولا حكومة ، والرابطة الدينية قد سحل مريرها وانتكث فتلها من أجيال طويلة ، بما اعتورها من اختلاف المذاهب ، وتنوع المشارب ، وتمزيق السلطة بتفريقها ، وما تولد عن ذلك من دماء سفكت ، وحرمات انتهكت ، وأرحام قطعت ، وقد آل أمر هذه الفتن فيهم الى أن استعان كثير من أمرائهم وسلاطينهم باعدائهم على إخوانهم في الدين ، وأعانوهم عليهم في بعض الاحايين ، ولا أبعد عليك في الشاهد ذهابا إلى تاريخ الدول المنقرضة ، فان في هذه الدول المواثل (جمع ماثل وهو الرسم الذي بقي له أثر) ما يغني عن الاستشهاد بالأوائل

ان بريطانيا ما استقرت قدمها في الهند الا بمعونة الافغانيين ، وان فرنسا ما تم استيلاؤها على الجزائر الا بمساعدة المراكشيين والتونسيين ، وكفى بخذل القريب ، مساعدة للغريب ، وقد كان لدولة الايرانيين ، يد عاملة في انتصار روسيا على العثمانيين ، وان الامراء الذين أضلوا الأمة عن سواء السبيل ، وفعلوا بها هذه الافاعيل ، هم الذين يصدونها عن

سبيل الاتحاد، ويحولون بينها وبين كل مراد، فأنى تتألف عناصرها، وتتلاصق جواهرها، وهذه الآلات المحللة لا تبرح عاملة فيها بالتفريق، ومتى تبلغ هذه الغاية والقائد هو الذي ينكب بها عن جادة الطريق؟ لم يدع أمراء المسلمين وسلاطينهم في بلادهم زعيما يرجع اليه، ولا رجلا تجتمع القلوب عليه، الا وخضدوا شوكته، وحصدوا نبته، إلا ما يكون في البلاد الهمجية من زعماء الفتنة الذين يخرجون على سلاطينهم ويعملون قوتهم فيما يصب البلاء عليهم وعلى أمتهم ودولتهم، كالذين أضرموا نيران الثورة في السودان، والذين لا يزالون يضرمونها في اليمن ومراكش، وكل أولئك يصح ان تمثل الامة فيهم بقول الشاعر

واخوان حسبناهم دروعا فكانوها ولكن للاعادي
وخلناهم سهاما صائبات فكانوها ولكن في فؤادي

وأقول أن بلاد المسلمين قسمان. قسم له حكومة منظمة، وجنود معلمة، كالدولة العلية والدولة الايرانية (*) وقسم ليس كذلك كدولة مراكش، والقسم الاول فيه بلاد همجية لم يسسها النظام، ولم تنفذ فيها القوانين والاحكام، فالحكومات أنفسها لا تقدم على محاربة دول الشمال لما تعلم، ولا يمكن أن يثور الاهالي في البلاد التي لها حكومات منظمة على الافرنج الذين تبوءوا بلاد الاسلام لان حكوماتهم هي التي تكبح جماحهم، وتنكث قواهم، فيكون ذلك سببا في زيادة ضعفها، وأما البلاد الاخرى فليس شأنها بأبعد من شأن هذه فحضرة الفاضل صاحب المقالة أعلم منا بما يجنيه أهل الريف في بلاد مراكش على حكومتهم من إغارتهم على السواحل وانتهابهم مراكب الافرنج وتعديهم على أهلها فقد اثقلوا غارب الدولة وحملوها من المغارم التي تدفعها للحكومات الاجنبية باسم الترضية ونحوه ما إذا طال عليه العهد يخرج عن طوق احتمالها، ويؤدي إلى طموح الاجانب لاحتلالها، واذا ضمت الى تفرق الكلمة وتنكيث القوى وضعف الحكومات حتى عن الرعية في البعض ما عليه دول الشمال القوية الحازمة من الاتفاق والاتحاد على ابتلاع أمم الجنوب وهضم حقوقها على

(*) تبين لنا بعد ذلك ان الدولة الفارسية ليس عندها جيش منظم

اختلاف الوسائل والتنازع في اقتسام الممالك — لاح لك أن الثورة والقيام على الاجانب خطر عظيم عاقبته مظلمة جداً والنتيجة ان هذا أمر لا يقع، ولئن وقع فقد يضر ولا ينفع

ان الشعور بحالة الامة السيئة صار عاما لا يكاد يجهله في جملته أحد ولكن الذين يتوقع منهم شعب الصدع ومداواة الكلم، قد اكتفى أهل النظر والفكر منهم بتأسف العاجز، وتحسر الزمنى، بل بما هو أشبه بحزن النسوان، ومنهم العميان، والمخدرو الجثمان، الذين لا يبصرون، ولا يتأملون ولا يتألمون، وهم متفقون على ان إصلاح الحال، وازالة الاختلال، لا يمكن أن يأتي الا من قبل الحكام، والحكام ميؤس منهم في أكثر البلاد فالاصلاح كذلك. هذا هو الرأي الغالب على الناس الا من هداه الله تعالى وقليل ماهم.

ومن الناس من يتكلم في الاصلاح بغير هدى ولا عقل منير فإما كلام مقطع غير معقول، وإما تقرير بالمقول، وأغرب ما كتب في ذلك الكاتبون الحث على الالتجاء لدول أوروبا والاعتماد عليها في إلزام الدولة العلية بالاصلاح على الوجه الذي يرونه او تراه تلك الدول وغاية هذا تسليم البلاد لها وقد فندنا هذا الرأي الفاسد من قبل وهو لبعض الفارين أو الاغرار، الذين يسمون أنفسهم بالاتراك الاحرار، والذي نعرف عن النبهاء والمتعلمين في مدارس الحكومة من الاتراك والمصريين ان الاصلاح لا يكون الا بتقليد أوربا في جميع الشؤون واتباع سننها شبراً بشبر وذراعا بذراع، وهو على إطلاقه اضلال أي اضلال، وذهب بعض المتمرنين في هذا الموضوع الى أن الاصلاح يتوقف على نهوض الامة وإلزامها الحكومة بما تريد منها بثورة كثورة الفرنسيس المشهورة وقد جربنا هذا وما قبله في مصر ولا نزال نتململ من سموم لدغاتهما والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين

فهل نقول بعد هذا « يمكن استرجاع مجد الشرق بقوة الاسلام »؟ نعم وألف نعم « ولكن بأي واسطة وأي سبيل يتم هذا الامر » ؟ ترك صاحب المقالة الجواب عن هذا السوال لفطنة القارئ وحكمته ولكن ذكره بما يهديه اليه — ذكره بنشأة الدين ومبدأ ظهوره. ذكره بذلك الانتشار السريع — ذكره بالقوة التي فاضت من

قفار القبائل المتوغلة في الخشونة والهمجية فغمرت المعروف من مشارق الارض ومغاربها وأبطلت كل قوة لغيرها وسلطان . ولكن هذه التذكرة تذهب النفوس في تأويلها مذاهب شتى . فمن الناس من يقول ان ذلك الاتحاد وما كان من آثاره حصل بالامداد السماوي والمعجزات والخوارق ولذلك يعتقد جماهير المسلمين أن الاسلام لا يعود اليه مجده الا بالمهدي المنتظر أو السيد المسيح عليه الصلاة والسلام وقد أضرَّ بهم هذا الاعتقاد ضرراً عظيما وكان من أسباب ضعف همهم وزلزال عزتهم وظهور الفتن والبدع فيهم (سنبين ذلك في مقالات أخرى)

ومن رأي هؤلاء ان العمل لإحياء مجد الاسلام عبث لا يفيد وانه لا مندوحة عن الرضى بالضيم والخنوع للذل ، حتى يخرج المهدي من الخباء ، أو ينزل المسيح من السماء ، ومنهم من يقول إن دولتي الرومان والفرس وغيرهما من الدول التي قوض عرش سلطانها المسلمون كانت عند ظهور الاسلام في تفرق وشقاق وفساد أخلاق فتسنى للمسلمين باجتماعهم واتحادهم التغلب عليهم وأما دول الشمال اليوم فهي في أعلى درج القوة والمنعة واجتماع الكلمة حتى بين كل دولة وأخرى بالنسبة للاستيلاء على أمم الجنوب فهيهات ان يتحد المسلمون واجتمعت كلمتهم لا يتسنى لهم فل جيوشهم ، وثل عروشهم ، بل ربما أفرط بعض هؤلاء فقال ولا يتأتى لهم تقليص ظلالهم ، وتخييب آمالهم ، لانهم هضموا ما طمعوا . فترك الكاتب النبيل بيان السبيل لفطنة القارىء لا يأتي بالفائدة المطلوبة فليس القارىء المخاطب واحدا وانما هم قراء مختلفون في المذاهب والآراء وهذا ما حدا بنا الى كتابة هذا الجواب مبينين رأينا في المسألة الذي اهتدينا اليه بعد البحث الطويل والوقوف على آراء الباحثين وهو

ان اصول الدين الاسلامي وتعاليمه وآدابه الصحيحة هي التي جمعت كلمة قبائل العرب وارتقت بهم من حضيض الهمجية إلى أوج الفضائل وأشرفت بهم على دول العالم بالسيادة والسلطان وهدتهم الى العلوم والفنون ولا خلاف في ان انحراف المسلمين عن جادتها هو الذي سلبهم ما كسبوا فالرجوع اليها هو الذي يؤلف بين قلوبهم ويجمع كلمتهم ويرجع لهم سيادتهم وقد بدأ الدين غريبا وانتشر بالدعوة والتعليم ولم تكن الحروب في أثناء الدعوة إلا وسيلة لسماع صوته ، كما سنبينه

في فرصة أخرى » وقد عاد الآن غريبا ويبتشر بالدعوة والتعليم « وفقا لما ورد في الحديث الشريف » ولا حاجة مع ذلك إلى الحرب ولا الى الخوارق والمعجزات لان الذين يراد إحياء تعاليم الدين وفضائله وآدابه فيهم أولاً و بالذات معتقدون أن جميع ما جاء في الدين حق وأن القرآن معجزة باقية إلى الأبد ولا يصدنا عن الارشاد والتعليم صاد ولا يمنعنا منها مانع في أمتنا و بلادنا ولا في غيرهما . وكيف والدعوة الى الاسلام لا يعارضها في الممالك الغربية معارض ولم يلق القائمون بها ذرة من البلاء الذي لقيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في بدء الاسلام ولا الائمة الذين دعوا الى البدعة بعده من قبل خلفاء المسلمين وأمرائهم . ولا يتوقف العمل إلا على اقتناع العلماء بان هذا الاصلاح مطلوب منهم وموكول اليهم وهم المسئولون عنه بين يدي الله تعالى وانه لا يتوقف على مساعدة الامراء والسلاطين فضلا عن كونه لا يأتي إلا منهم فاذا أشربوا ذلك في قلوبهم وتقشعت سحب اليأس من نفوسهم وجعلوا إمامهم القرآن وأحيوا معانيه في العقول في دروسهم ومجالسهم وخطبهم تهبط على الامة روح الوحدة من سماء العزة فيجتمع شرقيهم بغربيهم و يعيدون للشرق مجده « ولا يبعد ان يكون هذا مراد صاحب المقالة وان كان المتبادر خلافه » نعم ان الامراء والسلاطين إذا ساعدوا العلماء في عملهم هذا وسهلوا لهم سبيله يكون أسرع سيرا وأقرب وصولا وهذا ما حملنا على كتابة ما ترى في المنار من مقالات الاصلاح الديني واقتراحها على مقام الخلافة الاسلامية أيده الله تعالى وأعزه ولكن يجب ان لا ييأس العلماء من روح الله إذا لم يجب الطلب ولم يلتفت الى الاقتراح فقد علمنا التاريخ الحديث ان الامم في هذه العصور اذا تربت وتعلمت فانها تربي الحكام والسلاطين والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم (*

---

*) الغرض تنبيه الأمة الى قوتها الذاتية وتنبيه العلماء الى ان إحياء الأمة وإعادة قوتها اليها موكول اليهم. وما كتبنا ما كتبناه من اقتراح الاصلاح على مقام الخلافة الا لتنبيه المسلمين وتذكيرهم بتلك المسائل المقترحة ليوجهوا نفوسهم اليها وتذكيرهم بتقصير خليفتهم في خدمة ملتهم ليعلموا بعد إعراضه عما يقترح عليه انه لا صلاح لهم به وقد يكون صلاحه هو بصلاحهم